

"الأقباط عنصر أساسى فى الأمة المصرية، لا يمكن أن تقوم دراسة صحيحة عن مصر وشعبها دون دراسة للأقباط تاريخاً ولغة وجنساً وأدباً وفناً"

لمثلث الرحمت المتنيح الأنبا يوانس أسقف الغربية

ومساهمة منا فى نشر الوعى بالتاريخ القبطى فأننا نقتبس من كتاب

حضارة مصر فى العصر القبطى

تأليف مراد كامل

خامس : الحياة الإجتماعية

(ب) الأسرة

أهتمت المسيحية بحياة الأسرة كأساس لبناء مجتمع سليم . فبمجرد دخول المسيحية إلى مصر إهتمت بأن تدخل تعاليمها وقوانينها إلى الأسرة لتدعيمها وحمايتها ، فتساعد على تهيئة جو من الإستقرار والأمن .

فرابطة الزواج المسيحى تعتبر ركناً هاماً من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة التى هى : العمداد – التثبيت – التناول – الاعتراف – الزيجة – مسحة المرضى – الكهنوت (والسر الكنسى هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة) .

لذلك فرابطة الزواج تحتاج إلى نعمة إلهية لربط الزوجين برباط روحى متين ، يستمر مدى الحياة ولا يفصمه إلا الموت أو الخيانة الزوجية (الزنا) . لذلك فمن المحتم أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن شرعى ، وبالتالي لا يستطيع أحد أن يفصم هذه الرابطة إلا الكاهن فى حدود العلة الأنفة الذكر فقط .

وبما أن الزواج فى المسيحية رابطة روحية تجعل من الاثنين واحداً ، لذلك فلا يمكن أن يدخل ضمن هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة .

وعلى الكاهن بصفته أباً روحياً أن يستوثق من توافر شروط الزواج والخلو من موانعه . وأن يتأكد من الرضا الشخصى لكل من الخطيبين ، فيسأل كل منهما رأيه على انفراد بعيداً عن مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة .

ويسمى الأقباط حفل إتمام طقس الزواج بالإكليل — لأن الكاهن يتوج رأس العروسين أثناء الصلاة باكليلين ، دلالة على النعمة المقدسة التي توجت حياتهما برابطة الزيجة . وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والإبتهاج بمظاهر مختلفة . كان من أولها تقديم الشكر لله بمحاولة إشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة في مشاعر الفرح ، وذلك بتوزيع الكساء وما طاب من مأكّل وحلوى عليهم .

أما العائلات الثرية فتتحرر الذبائح ويستمر احتفالاتها عدة أيام . الليلة السابقة على العرس وتسمى " ليلة الحناء " وتقام وليمتها في بيت العروس لتوديعها ، وفيها تصبغ العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التي تتركها عجينة أوراق الحناء على الجلد ، ثم ليلة العرس في بيت العريس والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء ، وما يسمى بالنقوط (أى الهدية النقدية) ونشأت فكرتها أصلاً كمشاركة عملية في مصاريف العرس . وأحياناً تستمر هذه الحفلات إلى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كانت الأطعمة التي تقدم في ولاءم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة ، فقد منعت الكنيسة إقامة " الأكليل " في أيام الأصوام ، حيث يمتنع تناول الأطعمة الحيوانية والدسمة ، وحيث يمتنع الأزواج عن المعاشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة .

وحينما يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلي به في اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة ، وتسمى " صلاة الطشت " نظراً لاستخدام الطشت في غسل الطفل في ذلك اليوم . وخلال هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين في اختيار إسم قبضي للوليد — يختارونه غالباً من أسماء القديسين والشهداء المشهورين يمثلهم العليا ولهم في ذلك طرق مختلفة : فالبعض يختار اسم القديس الذي ولد الطفل في يوم عيده أو ذكرى استشهاده . والبعض يختار سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات ، والشمعة التي تستمر مضيئة إلى آخر الحفل يطلقون الاسم الذي تحمله على الوليد . وأحياناً يكون الاسم قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية الوليد بإسم القديس الذي استشفع به في وقت ضيقته .

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء يدفعهم لإطلاق أسمائهم على أبنائهم ، سواء كان اسم القديس من أصل مصري أو يوناني أو سرياني ، الأمر الذي أختلط على البعض فجعلهم يتشككون في مصرية حاملي هذه الأسماء . فكانوا ينسبون مشاهير العلماء والقديسين المصريين إلى اليونان لمجرد أن الاسم أصله يوناني . وكان في كل بيت قبضي " مقصورة " (ومعناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة) بها أيقونة (أى صورة) لقديس أو أكثر ، وتوضع في ركن خاص بالبيت كمكان مخصص للصلاة والعبادة ، وأحياناً يضيئون أمام الأيقونة قنديلاً من الزيت أو بعض الشموع تكريماً للقديس الذي كانت حياة الفضيلة والتضحية التي عاشها نوراً

وهدياً للمجتمع . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة القبطية أن تجتمع لتصلى الصلاة العائلية في الصباح وعند الغروب . وتحتفل العائلة بالعيد السنوى . لهذا القديس بتوزيع الصدقات وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء معاً .

وحينما تكتمل للولد أربعون يوماً ، تحمله أمه إلى الكنيسة لينال سر العماد ، فتعين له الكنيسة عزاباً أى (أشبيناً) ومهمته أن ينوب عن الكنيسة فى رعاية الطفل روحياً إلى أن يصل إلى سن الدراسة ، فيلتحق بمدرسة الكنيسة . وهذا الارتباط القوى بين البيت القبطى والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى تترك فى حياة أولاد العائلة انطباعات دينية عميقة . فكلما بنت العائلة بيتاً جديداً أو نقلت مسكنها إلى دار أخرى ، دعت الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم الكاهن فى آخرها برش الماء المقدس فى أرجاء البيت استجلاباً للخير وطرداً للشر . ومن الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيت رعيته من حين لآخر واعظاً و مرشداً . كما عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه فيصلى سر مسحة المرضى (القنديل) ويدهن المريض بالزيت المقدس .

ومن العادات العائلية القديمة فى الصعيد ، الأمسيات التى يسمونها " الميمر " . والميمر معناه السيرة . فإذا كان على عائلة نذر ما لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر لشفاء مريض أو توفيق شخص فى تجارته أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط ، احتفلت العائلة بدعوة الجيران والأقارب والفقراء ومرتلَى الألحان الكنسية إلى سهرة يجلسون فيها فى حلقة يتوسطها من يقرأ سيرة (ميمر) أحد القديسين . وكلما وصلوا إلى فصل جديد فى السيرة أو نقطة بطولة ، يتوقفون عن القراءة ويأخذون فى ترتيل المدايح الشعبية فى تهليل وبهجة . ويتبارى مرتلو الألحان فى ارتجال مقطوعات شعرية يسمونها " الأرباع " (أى أربعة أبيات) . وتدور معانى هذه القصائد حول المناسبة التى يحتفلون بها . وتدخل فيها ألفاظ أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت تلقى قديماً باللغة القبطية . ويدخل فيها أيضاً تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة . وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يجزلون العطاء (النقاط) على المرتل (وهو غالباً ضريير) وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل فى ذكر الله ورجاله الأتقياء . وهذه الاجتماعات تعتبر فى نفس الوقت وسيلة من وسائل الترفيه الشعبى الروحى .

المآتم :

وترتبط عادات الحزن والمآتم فى العائلات بمظاهر دينية أيضاً . إذ تشيع الجثة إلى الكنيسة حيث تقام صلوات جنازية استمطاراً لرحمة الله على ما قد يكون المنتقل قد فعله من هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة . وفيها أيضاً طلب التعزية السماوية لأهل الميت . وتقام صلاة خاصة فى بيت الميت فى اليوم الثالث للوفاة . ولهذه الصلاة أثر كبير فى تخفيف وطأة الحزن على أقاربه . ويسمى العامة " رفع

الحصير " أى إنهاء فترة الحزن الشديد التى فيها يجلس أهل البيت والمعزون على الحصير أرضاً بدلاً من الجلوس على الارائك أو المقاعد .

وبعد ذلك تقام القداسات فى الكنيسة استمطاراً لرحمة الله فى أيام السابع والخامس عشر والأربعين . وتعتبر هذه فرصاً مناسبة للتعبير السليم عن مشاعر الحزن ، إذا ما اقترنت بالتأثير الدينى الذى يعمل دائماً على حفظ اتزان المشاعر ، فلا يكون فيها إفراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين . كما لا يكون فيها كبت ، كما يحدث لدى الذين يفهمون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن . فقد أثبتت أبحاث علم النفس التطبيقى أن كبت مشاعر الحزن للظهور بمظهر التمدن ، قد أدى فى كثير من الحالات إلى أمراض جسمية ونفسية تظهر آثارها بعد فترة من الزمن .

ولكن للأسف اقترنت أحزان الأقباط خصوصاً عند النساء فى الصعيد ببعض العادات الوثنية من لطم مؤذ ، وشق للملابس ، وحل للشعر ، وصبغ بالنيلة ، والقرع على الصدر بشدة ، وفقد زمام النفس حتى تتمايل الثكلى أحياناً باهتزازات توقعية تتمشى مع أنغام التعديد الذى كثيراً ما يقترن بقرع الرق أو الطبول . وتختلف أقاليم الصعيد فى طريقة " التعديد " وهى فى الغالب تعديد مآثر الفقيد ، ومقدار الخسائر التى لحقت بفقده . إلا أن بعضها ينحرف إلى عبارات الكفر والتذمر . وهذه العادات والأقوال لا تقرها المسيحية ، ويحاربها رجال الدين فى مواضعهم .

وعندما ترزأ عائلة بفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة إلى مشاركتها فى التعزية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشارك أيضاً فى أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، إذ ترسل كل عائلة (صينية) مأكولات إلى بيت المأتم الذى يكون مشغولاً ، فلا يتمكن من إعداد الطعام للمعزين .

وعادة زيارة المقابر (الطلعة) – أى الخروج إلى المقابر التى تكون غالباً خارج القرية أو على مكان مرتفع جاف – من العادات القديمة . وهى من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت فى أيام الأعياد ، التى يعتاد فيها أفراد العائلة التجمع معاً من بلادهم المتفرقة ، وتصطحب هذه الزيارة بعادات أخرى منها السليم ومنها الضار . فتوزع الصدقات والمأكولات على الفقراء ، وترفع الصلوات لطلب رحمة الله . إلا أنهم كانوا يغالون فى ذلك فيبببتون فى المقابر ويقيمون عدة أيام ويتمادون فى مظاهر الحزن المفرط .